موارد مالك الصغير

وجهوده في التعريف بمذهبه

الدكتور

الصادق بن ساسي كرشيد

المقدمة

ما كنت لأكتب حول هذه الشخصية لولا ما عرف به ابن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير من مواقف جريئة في الدفاع عن هويته، والذب عن مذهبه الفقهي وفق منهج بحثي استطاع بفضله التفرد بالكثير من الزيادات في أكثر من حقل معرفي، ويبدو لي أن من أهم العوامل التي ساعدته على ترقي موقع الصدارة بين أعلام مذهبه واحتفاظه بلقب مالك الصغير حياً وميتاً نوعية الموارد التي اصطفاها بنفسه عبر مسيرته العلمية الطويلة.

فما هي أهم تلك الموارد وكيف كان تعامله معها، وإلى أي حد ساعدته على حماية توجهه العقدي وإثراء مذهبه الفقهي؟

موارد مالك الصغير:

إن عالما كبيراً كابن أبي زيد دخل أكثر من مصر، وانتسب إلى أكثر من مدرسة لا بد أن تكون مرجعيته على غاية كبيرة من التنوع والثراء، ونظراً لذلك فسأكتفي بالتعرض إلى أكثرها؛ اعتمادا من لدنه، وتأثيراً في مسيرته.

أولاً: القرآن الكريم

يبدو أن علاقة ابن زيد بالقرآن الكريم قد توطدت منذ وقت مبكر حيث أخذ إلى الكتاب لامتلاك اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم، وما تيسر من حديث رسول الله ﷺ، ومن المؤكد أن ابن أبي زيد قد أتقن حفظ القرآن منذ أيام طفولته الأولى حيث ظهر بوضوح تام التزامه به فكرًا وممارسة على امتداد مراحل حياته، فهو العمدة في رده عن كل سؤال ورد عليه، ومعالجة كل قضية تطرق إليها، مستشهداً بأكثر الآيات تأييداً لما ترجح لديه كقوله: (ولا صيام على الصبيان حتى يحتلم الغلام، وتحيض الجارية، وبالبلوغ لزمتهم أعمال الأبدان فريضة، قال الله

تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾[١]، و(لتكف يدك عما لا يحل لك من مال أو جسد أو دم، ولا تسع بقدميك فيما لا يحل لك، ولا تباشر بفرجك أو بشيء من جسدك ما لا يحل لك، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[٢]. ونظير ذلك جد كثير في الرسالة[٣] وكتاب النوادر والزيادات[٤] وكتاب الجامع[٥] ومختصر المدونة[٦] على وجه الخصوص.

ومن المعلوم أن مالكاً الصغير لم يكتفِ بمجرد الاستشهاد بالآيات، بل كان يصر على بيان المراد من كل ما يستوجب المقام شرحه من الألفاظ بالاعتماد على نفسه تارة (قال الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ وهن العفيفات الحرائر المسلمات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً...﴾[٧]، مستعيناً بغيره أحيانا أخرى كما هو الحال في تفسيره لقوله ﷻ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[٨]، قال أبو محمد: قال رسول الله ﷺ «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى

---

(١) حاشية العدوي على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد: ١/٣٩٦-٣٩٧، والآية من سورة النور: الآية ٥٩.

(٢) حاشية العدوي، باب جمل من الفرائض والرغائب: ٢/٣٨٣، والآية من سورة المؤمنون، من الآيتان ٥-٧.

(٣) حاشية العدوي ١/٣١٩، ٤١٠، ٢/٥٠/٥٤.

(٤) انظر: المجلد ١/ الورقة ٣٢/ب، الورقة ٣٥/ب، الورقة ٢٥٧/أ...الخ.

(٥) انظر: الجامع ٢٨٠، ٢٩٧، ...الخ.

(٦) انظر: مختصر المدونة، الورقة ١٦/أ ...الخ.

(٧) مختصر المدونة: الورقة ١٠/أ، والآية من سورة النور: ٤.

(٨) سورة يونس الآية ٢٦.

وجه الله ﷻ))[١]، و((وروي عن ابن عباس في قوله ﷻ ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[٢]، قال هي الفطرة وهي خمس في الرأس، وخمس في الجسد ففي الرأس المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب والفرق للشعر، وفي الجسد الختان وحلق العانة ونتف الإبط وقص الشارب وقص الأظافر والاستنجاء))[٣]، هذا إلى جانب ما اعتمد فيه على التابعين، كقوله ((وقال مجاهد في قوله ﷻ ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾[٤] قال الغناء))[٥].

ومن الناحية الأخرى فإن مالكاً الصغير لم يفوت على نفسه فرصة إعلان موقفه الشخصي من بعض المسائل التي كانت فيما يبدو محل جدال في زمانه كقوله ((ونصدق بما جاءنا عن الله ﷻ في كتابه، وبما ثبت عن رسول الله ﷺ من أخباره، نوجب العمل بمحكمه، ونقر بنص مشكله ومتشابهه ونكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره إلى الله ﷻ، والله يعلم تأويل المتشابه من كلامه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾[٦] وقال بعض الناس: والراسخون في العلم يعلمون مشكله، ولكن الأولى قول أهل المدينة، وإليه يدل الكتاب))[٧]، مذكراً بأسباب نزول بعض الآيات في أكثر من مناسبة ((وفي رجب بعث عبد الله بن جحش إلى نخلة فلقي العير، وقتل ابن الحضرمي في آخر يوم من رجب، وفي ذلك

---

(١) الجامع: ٤١.

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٤.

(٣) الجامع: ٢٣٢-٢٣٣.

(٤) سورة لقمان الآية ٦.

(٥) الجامع ٢٨٩.

(٦) آل عمران: الآية ٧.

(٧) الجامع ١٤٦.

نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[١]، بل وكذلك بأول ما نزل من القران في بعض المسائل (ثم كانت أول آية أنزلت على النبي ﷺ في الجهاد قوله ﷻ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٢] ثم أنزل الله ﷻ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٣].

هذا ولم يدخر مالك الصغير جهداً في دعوة المسلمين إلى توثيق علاقتهم بكتاب اللهﷻ وملازمة التأدب معه في كل الأحوال (ولا يحل لك قراءة القرآن ولا سماعه باللحون المرجعة كترجيع الغناء، وليجلّ كتاب الله العزيز أن يتلى إلا بسكينة ووقار، وبما يوقن أن الله يرضى به ويقرب منه مع إحضار الفهم لذلك)[٤]، ومن المؤكد أن ابن أبي زيد قد توسع كثيراً في تناول هذه المسألة في كل من كتابه البيان عن إعجاز القرآن، وفي رسالته إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن[٥].

لقد كانت علاقة مالك الصغير بالقرآن الكريم قوية جداً وفي منتهى التنوع، وكل ما يلام عليه مزجه أحيانا بين القرآن وآرائه الشخصية مما يوقع غير العارفين في الخلط وسؤ الفهم، وسبب ذلك فيما اعتقد ما عرف به من حرص شديد على اختصار كتبه لكي تكون أكثر انتشاراً وتداولاً بين العامة والخاصة في فترة شهدت منافسة شديدة بين المالكية والمنتمين إلى مذاهب إسلامية أخرى لم تشهدها أفريقية من قبل.

---

(١) الجامع ٢٩٧، والآية من سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة الحج الآية ٣٩.

(٣) الجامع ٢٩١، والآية وردت في سورة القفرة ١٩٣، وسورة الأنفال ٣٩.

(٤) حاشية العدوي ٢/٤٠٠-٤٠١.

(٥) انظر ترتيب المدارك ٢/٤٩٤، معالم الإيمان ٣/١٣٧-١٣٨.

ثانيا: الحديث النبوي

يمثل الحديث النبوي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، ولذلك فقد أسرع ابن أبي زيد إلى توطيد علاقته به وبما أثر عن الصحابة والتابعين ﷺ حيث برز نبوغه في علم الحديث ورواية ودراية منذ وقت مبكر كما شهد له بذلك كبار العلماء، قال القاضي عياض (كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية)[١] وقال القابسي (إمام الموثوق به، في درايته وروايته)[٢].

استعان ابن أبي زيد بما دعته الحاجة إليه من السنة النبوية حيث استشهد في مختلف مصنفاته وعلى رأسها النوادر والزيادات، والجامع.وبوجه أقل في الرسالة بالقولي والفعلي والتقريري من الحديث النبوي وفي مقدمتها أحاديث الأحكام بحكم تخصصه[٣]، مذكراً القراء بالبعض من آداب المصطفىﷺ وأحاديثه الجامعة (وجماع آداب الخير وأزمته تتفرع عن أربعة أحاديث قول النبي ﷺ ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت))[٤]، وقوله ﷺ ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))، وقولهﷺ للذي اختصر له في الوصية لا تغضب، فردد مراراً فقال لا تغضب[٥]، ورابعها قولهﷺ ((المؤمن من يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[٦].

---

(١) ترتيب المدارك ٢/٤٩٢.

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٩٣.

(٣) انظر مختصر المدونة: الورقة ١٦/أ.

(٤) هو جزء من حديث أخرجه البخاري في باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، من كتاب الأدب، كما أخرجه مالك في باب جامع ما جاء في الطعام والشراب من كتاب صفة النبيﷺ.

(٥) أخرجه مالك في باب ما جاء في حسن الخلق من كتاب حسن الخلق، والترمذي في الباب ١١ من كتاب الزهد.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، وأخرجه مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الغضب.

إن المتتبع لما اعتمده مالك الصغير من أحاديث في عموم مصنفاته وما رواه عنه تلاميذه يلاحظ:

أولاً: يبدو واضحاً أن ابن أبي زيد كان من أوائل الذين أخلصوا في خدمة الحديث النبوي وساعدوا على نشره في الغرب الإسلامي بما بذله من جهود متميزة في هذا المجال ولا سيما من خلال ما أورده في (باب العلم وهي العلماء وآدابهم وذكر الفتيا) من مسائل جوهرية كعدم جواز تحديث الأئمة بخبرين مختلفين[١]، وحكم الرواية بالمعنى لحديث رسول الله ﷺ وحديث غيره، وما يمكن أن يترتب عن ذلك زيادة ونقصان في الحروف[٢]، وعدم جواز أخذ الحديث عن الثقة الذي لا يحفظ ما يحدث به خوف أن يزاد كتبه دون أن يعلم بذلك[٣]، وكراهية العجلة في الفتيا، وأن من ذلالة العالم أن يجيب كل من سأله[٤] وصيغ التعبير عن القراءة على العلم[٥] وما يقوله من حضر القراءة على الشيخ[٦]، ومسألة المناولة المقترنة بالإجازة[٧]، وكيف أن المناولة أقوى من الإجازة إذا صح الكتاب[٨] هذا إلى جانب ما اهتم به من

(١) أصل الحديث قوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وقد أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، انظر: حاشية العدوي: ٣٩٩.

(٢) أنظر: الجامع ١٧٥.

(٣) أنظر: الجامع ١٧٥.

(٤) أنظر: الجامع ١٧٦.

(٥) أنظر: الجامع ١٧٩.

(٦) أنظر: الجامع ١٨٠.

(٧) أنظر: الجامع ١٨٠.

(٨) انظر: الجامع ١٨١

مسائل أخرى في كتابه مختصر المدونة كما صرح بذلك[١] يضاف إلى كل ذلك ما أثرى به مكتبة الحديث وعلومه من مصنفات قيمة ككتاب الاقتداء بأهل السنة[٢] ورسالته في طلب العلم والسنن[٣].

ثانيا: لم يقتصر مالك الصغير في أعماله على الاحتجاج بالمرفوع من الأحاديث بل كثيراً ما استعان بالمواقف والمقطوع أيضا كلما دعت الحاجة، مثال ذلك (أن عمر ﷺ كان يقول فرض الجهاد لسفك الدماء المشركين والرباط لحقن دماء المسلمين، وحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين)[٤] و(عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه خلا بجارية فرآه رجال فأتى بها إليهم فقال: هذه جاريتي، فقالوا: يغفر الله لك أيتهمك أحد؟ قال: لا، ولكن أحببت أن تعلموا ذلك)[٥] كما ذكر بالقولة المشهورة لعمر بن عبد العزيز ﷺ (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور)[٦] مشيداً في أكثر من مناسبة بمناقبهم (كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وسعيد بن المسيب لا يغيرون الشيب)[٧]، و(سرد الصيام من السلف عمر وعثمان وابن عمر وعائشة وغيرهم كثير من التابعين، وهو صوم عيسى ابن مريم عليه السلام)[٨] ما ساعد على كشف جوانب خافية من سيرة المستشهد بهم.

---

(١) انظر: الجامع ١٨١

(٢) ترتيب المدارك ٢/٤٩٤.

(٣) القاضيان القيروانيان ١٤٤، ١٥٥.

(٤) النوادر الزيادات: الورقة ذ٢٥٦/أ.

(٥) الجامع: ٢١٠-٢١١.

(٦) حاشية العدوي: ٢/٣١٢.

(٧) الجامع: ٢٣٦.

(٨) النوادر والزيادات: الورقة ١١٨/أ.

ثالثاً: أن ما بذله ابن أبي زيد من جهود متميزة في خدمة الحديث النبوي لا ينفي عدم إخفاقه أحيانا كإصراره على ذكر متون الأحاديث مجردة من أسانيدها، وهو ما وقعه كنسبته الحديث إلى غير قائله كما هو الحال في نسبته حديث (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم) إلى عمر ﷺ[١] في حين أن هذا الحديث من قوله ﷺ[٢] فضلاً عن إيراده للكثير من الأحاديث بصيغة التمريض في حين أنها مما اتفق أغلب أئمة الحديث على أنها من الحسن إن لم تكن من الصحيح، يزاد على ذلك اجتهاده غير الموفق أحيانا في رواية بعض الأحاديث مما يدخل الاضطراب على غير العارفين بالحديث مثل شذوذه بذكر المعوذتين دون سورة الإخلاص في حديث تعوذ النبي ﷺ بالمعوذتين مخالفاً بذلك عموم الأئمة في ذلك أسوته إمام دار الهجرة[٣]، ومما يعاب عليه أيضا اعتماده دون موجب بعض الأحاديث الضعيفة كقوله (وروي أن النبي ﷺ قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[٤].

لقد سلك ابن زيد القيرواني في تعامله مع الحديث النبوي مسلك بعض الفقهاء والمحدثين الذين عرفوا بتساهلهم في الاحتكام للحديث النبوي والتعامل معه إلا أن ذلك لا يعني أنه لم يكن من الجادين على المستوى العام حيث ثبت من خلال

---

(١) انظر حاشية العدوي ٢/٥٦٤، الجامع ٢٨٤.

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعلم النسب.

(٣) ذكر ابن أبي زيد في كتابه الجامع: "وقالت عائشة كان النبي ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد عليه الوجع كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها"، وقد أخرج الحديث تاماً البخاري في كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذات، ومالك في كتاب العين باب التعوذ والرقية في المرض.

(٤) الجامع ١٥١، ولمعرفة درجة الحديث انظر: الضعفاء الكبير ٤/٢٥٦.

حصحصة جانب كبير مما استشهد به أحاديث أنها كانت عمدة أعلام المحدثين وكبار الفقهاء.

ثالثا: الموروث الفقهي

استطاع ابن أبي زيد بمواكبته لما كانت تفخر به أفريقيا من نهضة علمية، وبما قطعه من رحلات علمية إلى أكثر من معقل علمي أن يطلع على خبرة ما صنف في العلوم الإسلامية وفي مقدمتها الفقه منتقياً أفضلها، ولئن تعددت مصادره ومراجعه الفقهية فسأكتفي بالإشارة إلى أكثرها حضورا في مناظراته ومصنفاته:

١- الموطأ للإمام مالك بن أنس الذي توسع في العودة إليه و الإشادة به حتى أنه لا تكاد تخلو صفحة من صفحات أغلب كتبه من ذكره.

٢- الأسدية لأبي عبد الله أسد بن الفرات (٢١٣هـ/٨٢٨م)[١].

٣- المختصر الكبير في الفقه لعبد الله بن عبد الحكم المصري (٢١٤هـ/٨٢٩م) المتضمن لحوالي ١٨٠٠٠ مسألة[٢].

٤- كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد الله القاسم بن سلام الهروي (٢٢٤هـ/٨٣٨م)[٣].

٥- الواضحة في السنة والفقه لعبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي (٢٣٨هـ/٨٥٢م) الفقيه والمؤرخ الكبير الذي كان ابن أبي زيد يكثر من الثناء عليه[٤].

---

(١) انظر رياض النفوس ١/٢٥٤، معالم الإيمان ٢/٢-١٦، الديباج ١/٣٠٥.

(٢) انظر رياض النفوس ١/٢٤٧، معالم الإيمان ٢/٤٧، الديباج ١/٤١٩.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ٨/٢٨٣-٢٨٦.

(٤) انظر ترتيب المدارك ٢/٣٠-٣٤، تاريخ التراث العربي ١/٥٨٦.

٦- المدونة[١] للإمام سحنون القيرواني (٢٤٠هـ/٨٥٤م) التي كانت خير مساعد له في معالجة عديد من المسائل[٢].

٧- كتاب الجامع في العلم والفقه، وكتاب المسند في الحديث، وكتاب السير لمحمد بن سحنون (٢٢٥هـ/٨٦٨م) أحد كبار أعلام المالكية بأفريقيا، وخير خليفة لأبيه نظراً لسعة علمه بالآثار وتمام معرفته بالنظر والاختلاف[٣].

٨- أصول أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع المصري (٢٥٥هـ/٨٦٨م) الذي صاحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وسمع منهم مما جعل رئاسة المالكية تؤول إليه في عصره لا سيما بعد أن صنف كتاب تفسير غريب الموطأ وكتاب آداب القضاء، وكتاب الرد على أهل الأهواء[٤].

٩- العتبية[٥] لمحمد بن أحمد العتبي الأندلسي القرطبي (٢٥٥هـ/٨٦٨م) الذي كان من اعرف أهل زمانه بفهم المسائل وأجمعهم لها إلى جانب علمه بالنوازل[٦].

١٠- المجموعة على مذهب مالك وأصحابه لمحمد بن إبراهيم بن عبدوس (٢٦٠هـ/٨٧٣م) أحد كبار أصحاب سحنون، ومن خيرة العارفين باختلاف أهل المدينة فضلا عن حفظه لمذهب الإمام مالك[٧].

---

(١) وتسمى كذلك بالمختلطة.

(٢) انظر ترتيب المدارك ٢/٥٠-٨٦، رياض النفوس ١/٣٥٢.

(٣) انظر ترتيب المدارك ٢/١٠٤-١١٨، الديباج ٢/١٦٩-١٧٣.

(٤) انظر ترتيب المدارك المدارك ١/٥٦١-٥٦٥.

(٥) والمسماة أيضاً بالمستخرجة من المسائل مما ليس في المدونة.

(٦) انظر ترتيب المدارك ٢/١٤٤-١٤٦، تاريخ التراث العربي ٢/١٤٤.

(٧) انظر ترتيب المدارك ٢/١١٩-١٢٤، الديباج ٢/١٧٤.

١١- كتاب مجموع الاختصار[١] لمحمد بن إبراهيم بن رباح المعروف بابن المواز (٢٦٩هـ/٨٨٢م) الذي أشاد به القاضي عياض بكونه أجل كتاب ألفه قدماء المالكية وأصحاب المذهب على أصولهم في حين اكتفى غيره بجمع الروايات[٢].

وبالنظر في مختلف هذه الذخائر التي تفتخر بها مكتبتنا العربية يتضح:

أولاً: إن أغلب ما اعتمده مالك الصغير من مصنفات كان من أجل ما كتب في الفقه الإسلامي عموماً، والفقه المالكي على وجه الخصوص.

ثانياً: لم يكتفي ابن أبي زيد بما كان متداولا في القيروان بل كان يبحث عن ضالته في مكان كما توحي بذلك إحالاته (ومن كتاب آخر لبعض أصحابنا من الأندلسيين فيمن سلم من اثنتين ثم رجع بالقرب فإنه يكبر ثم يبني، وقال ابن القاسم)[٣]، و(قال بعض البغداديين من أصحابنا رحمهم الله أن المرأة إذا احتلمت وجب لها بذلك حكم البلوغ وان لم تحض)[٤] مما يؤكد متانة العلاقة التي كانت تربطه ببقية فقهاء المالكية في بقية الأمصار الإسلامية.

ثالثاً: التزم مالك الصغير بإطلاع قرّائه على كيفية وصوله إلى ما اعتمد من مصادر، واستعان به من مراجع دون لف أو دوران كما صرح بذلك (فأما المستخرجة من السماعات فقد حدثني بها أبو بكر بن محمد عن يحيى بن عبد العزيز عن العتبي محمد بن أحمد، أما المجموعة فقد حدثني

---

(١) والمسمى أيضاً بالموازنة.

(٢) انظر: ترتيب المدارك: ٢/٧٢-٧٤، تاريخ التراث العربي ٢/١٤٨.

(٣) رياض النفوس ٢/٢٥١-٢٦٠.

(٤) ترتيب المدارك ٢/٣٤٠، معالم الإيمان ٣/١٥٣.

بها حبيب بن الربيع عن محمد بن بسطام عن محمد بن عبدوس عن سحنون عن رجال مالك،

وأما كتاب ابن الموز فمن روايتي عن دراس بن إسماعيل عن علي بن عبدالله بن أبي مطر عن محمد بن إبراهيم بن المواز وبعضها عندي إجازة، وأما الواضحة والسماع فمن روايتي عن عبد الله بن مسرور عن يوسف بن يحيى المعالمي عن عبد الله بن حبيب، وأما كتاب ابن سحنون فعن محمد بن سحنون عنه، وأما مختصر ابن عبد الحكم فحدثني به محمد بن مسرور عن المقدم عن عبد الله بن الحكم، وما ذكرت فيه ليكن بن العلاء وأبي بكر الأبهري وأبي إسحاق بن القرطبي فقد كتبوا به إليَّ وكل ما ذكرت فيه عن ابن أبي الجهم فقد أخبرت به عن غير واحد وذلك بروايات يكثر ذكرها)[١]، وهكذا يتضح وكما إشارة ابن خلدون أن ابن أبي زيد قد جمع في كتابه النوادر والزيادات جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال مما جعله متضمناً لجميع أقوال المذاهب فضلاً عن تفريعه للأمهات كلها، وهو ما دفع ابن يونس إلى نقل معظمه في كتابه المدونة[٢] يزاد على ذلك ما ورد في كتاب الجامع من تعريف دقيق بمختلف ما اعتمده من طرق التحمل والأداء[٣] وبما اتخذه من رموز مما ساعد أكثر على مزيد الاستفادة من مؤلفاته والاطمئنان إليها (وما كان فيه من كلام أوله محمد فهو ابن المواز، وما كان فيه لابن سحنون وابن عبدوس ففي أوله ذكر ابن سحنون أو ابن عبدوس، وما كان فيه من أثر عن النبيﷺ أو قول السلف من صاحب أو تابع أو غيره من صدور الأبواب أو غيرها وفي المغازي والآداب وغيرها فمروي عندنا بروايات يطول شرحها، وما كان فيه

(١) النوادر الزيادات: الورقة ٣/أ.

(٢) انظر: المقدمة ٤٥٠.

(٣) الجامع: ٣٢٢-٣٢٧.

من احتجاج واستدلال فمنه مذكور صاحبه، ومنه لم يذكر وهو لمتقدمي أصحابنا، ومنه لمتأخريهم من البغداديين وغيرهم، ومنه شيء يحضرني استنبطه على معنا أصولهم واحتجاجهم، وما كان فيه يريد كذا أو بغير كذا فهو تنبيه وتفسير على ما فهمت وعلمت من معنا ذلك في قولهم ومذهبهم، وكل ما رويت فيه من المختلطة من قول لغير ابن القاسم فاعلم أنه ليس من المختلطة وانه زيادة من غيرها وهو ينصرف إلى ما ذكرته من الروايات، وما كان من ذكر الفرائض فأصله من موطأ مالك ومن غيره مما لم اعتمد فيه قول مالك وأهل المدينة، وما كان في الجامع الذي ختمت به المختصر فمنه من مجالس مالك من السماعات والمجموعة وغيرها، ومنه من الموطأ، ومن غير ذلك من الدواوين برواية قدمنا كثيرا منها)[١].

لقد اجتهد ابن أبي زيد كثيرا في انتقاء مصادره معرفاً بموارده ومختلف طرق تحمله مع بيانه ما توصل إليه غيره ليقينه بأن من بركة القول نسبته إلى صاحبه، وهو ما يعبر مرة أخرى عن مدى أمانته العلمية وسموه الخلقي.

رابعا: شيوخه

مما لا شك فيه أنه لما كثرت مصادر ابن زيد فإن شيوخه كانوا أكثر، ولذلك فسأكتفي بالإشارة إلى أكثرهم علما إشعاعا، وأشدهم تأثيرا في شخصيته.

١- أبو محمد عبد الله بن سعيد الحداد (٣٢٠هـ/٩٤١م) الذي اشتهر بمعرفته للقياس ونبذه للتقليد فضلا عن تمام خبرته بالمذهب الشافعي وحسن مناضرته لمخالفيه في الرأي[٢].

---

(١) كتاب الجامع: ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٢/٣٤٠، معالم الإيمان ٣/١٣٥.

٢- أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد القيرواني (٣٣٣هـ/٩٤٤م) أحد كبار الفقهاء في زمانه، ومن العارفين باختلاف أهل المدينة وإجماعهم كما تشهد له بذلك مصنفاته ككتاب الطهارة وكتاب الآثار والفوائد، وكتاب عصمة النبيين، وكتاب فضائل مالك[١]، وهو ما دفع ابن أبي زيد وأقرانه إلى التسلل إليه خفية، وكانوا ربما جعلوا الكتب فيه أوساطهم وحجرهم حتى تبتل بعرقهم خوفا على أنفسهم وعلى شيخهم من بطش العبيديين.

٣- أبو الفضل العباس بن عيسى المسمى القيروانى (٣٣٣هـ/٩٤٤م) يتكلم في علم مالك كلاماً عالياً، ويفهم علم الوثائق فهماً جيداً، ويناظر في الجدل، وفي مذهب أهل النظر على رسم الفقهاء والمتكلمين مناظرة حسنة، توفي بواد المالح على مشارف المهدية في أثناء مشاركته تلميذه ابن أبي زيد في التصدي للعبيديين، قال مالك الصغير يوم وفاته (وددت أن القيروان سبيت ولم يقتل أبو الفضل[٢].

٤- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي (٣٣٣هـ/٩٤٥م) صاحب كتاب علماء أفريقيا، كان أحد كبار المترجمين والقضاة في عصره، تحمل عنه ابن زيد الكثير من الأحاديث وأخذ عنه فقه مالك وأخبار العلماء وقد كانت لأبي العرب مشاركة فعالة في التصدي للعبيديين مما كلفه وعائلته متاعب جمة[٣].

---

(١) انظر: ترتيب المدارك ٣/٣٤٠، رياض النفوس ٢/٢٨٢-٢٩٢.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٣/٣١٣، رياض النفوس ٢/٢٩٢.

(٣) انظر: ترتيب المدارك ٢/٣٣٤-٣٣٦، رياض النفوس ٢/٣٠٦.

٥- أبو سليمان ربيع بن عطاء الله القطان القرشي (٣٣٤هـ/٩٤٥م) أحد أعلام الحديث والتفسير ولسان أهل أفريقيا في الزهد والرقة والكلام على الأحوال والمقامات لا يسبقه في ذلك أحد، وقد عرف القطان كغيره بإصراره الشديد على التصدي للعبيديين إلى أن وافته المنية وهو يواجههم على مشارف المهدية[١].

٦- أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق التونسي المعروف بالأبياني (٣٥٢هـ/٨٦٧م) جمع بين التبحر في المذهب المالكي والمعرفة بالمذهب الشافعي، كان ابن أبي زيد يكتب إليه فيما استعصى عله من مسائل قبل تحوله إلى القيروان، وقد أثنى عليه القابسي قائلا (ما رأيت بالمشرق ولا بالمغرب مثل أبي العباس[٢].

٧- أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي الجروي (٣٥٧هـ/٩٦٧م) أحد كبار شيوخ العلم في المغرب، واليه يعود الفضل في إدخال المدونة إلى المغرب، كان على معرفة ودراية بالفقه المالكي، وقد أقام بالقيروان مدة في ضيافة ابن أبي زيد مما مكن هذا الأخير من تحمل الموازية عنه[٣].

٨- أبو محمد عبد الله إبراهيم الأصلي الأندلسي (٣٩٢هـ/١٠٠١م) المحدث البارع، والمشهود له بكثرة تفننه في نقد الأحاديث والمعرفة الدقيقة بعللها فضلاً عن كلامه في الأصول ورفضه للتقليد، وكتابه الدلائل الذي جمع فيه اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة خير شاهد على ذلك[٤].

---

(١) انظر: ترتيب المدارك ٢/٣٢٣-٣٣٢، رياض النفوس ٢/٣٢٣.

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٢/٣٤٧-٣٥٢، الديباج ١/٤٢٥-٤٢٧.

(٣) انظر: ترتيب المدارك ٢/٣٩٥-٣٩٧، معالم الإيمان ٣/١٣٥.

(٤) انظر: ترتيب المدارك: ٢/٦٤٢-٦٤٨، الديباج ١/٤٣٣.

وإذا كان من سبق ذكرهم وآخرون قد تشرف ابن أبي زيد بمجالستهم فإن موانع كثيرة حالت دون ذلك بالنسبة لنخبة أخرى من أعلام عصره مما دفعه إلى البحث عن طريق أخرى للتواصل معهم:

أ- من الذين أخذ عنهم إجازة:

٩- أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري البغدادي (٣٧٥هـ/٩٨٥م) الملقب بابن أبي زيد المشرق حيث كان يجمع بين المعرفة بالتفسير وحسن الدراية بالحديث وروايته إلى جانب تمكنه في الفقه، وهو ما بوأه مقام القيم برأي مالك في العراق حيث لم يكن أجل منه مما جعل أصحاب الشافعي وأبي حنيفة يحتكمون إليه في أكثر من مناسبة، مستعينين بأكثر مصنفاته شهرة مثل شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبد الحكم، وكتاب إجماع أهل المدينة، وكتاب الأصول، وكتاب الرد على المزني، وغيرها من المؤلفات الجليلة[١].

١٠- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المرزوي البغدادي (٣٩٥هـ/١٠٠٤م) نزيل مصر وأحد أعلام الفقه المالكي في زمانه[٢].

ب - من الذين اخذ عنهم مكاتبة:

١١- أبو الفضل بكر بن محمد بن العلاء القشيري (٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذي يعد من كبار فقهاء المالكية وحفظ الحديث، حدث عنه خلق كثير من المصريين والأندلسيين، من أشهر مؤلفاته كتاب الأحكام، وكتاب أصول الفقه وكتاب القياس، وكتاب الرد على الشافعية وكتاب الرد على من جهل محل مالك، وكتاب الرد على القدرية[٣].

---

(١) انظر: ترتيب المدارك ٣/٤٦٦-٤٧٣، الديباج ٢/٢٠٦-٢١١.

(٢) انظر: شجرة النور ١/٩٦.

(٣) انظر: ترتيب المدارك: ٢/٢٩٠-٢٩٣، الديباج ١/٣١٢.

١٢- أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان القرطبي (٣٥٥هـ/٩٥٦م) الذي يعد من كبار فقهاء مصر في عصره، وقد عرف بكثرة عداوته للعبيديين إلى حد تمنيه الموت قبل دخولهم مصر، وهو ما تحقق له بالفعل ترك وراءه عديدا من المصنفات مثل مختصر ما ليس في المختصر، والزاهي الشعباني المشهور في الفقه، وأحكام القرآن، ومناقب مالك، وشيوخ مالك[١].

١٣- عبد الرحمن بن محمد فطيس (٤٠٢هـ/١١١١م)[٢]

وعموما فإن من يتتبع سير من سبق ذكرهم يلاحظ:

أولاً: إن كل هؤلاء الشيوخ كانوا من خيرة أعلام عصرهم في تخصصاتهم، ومن المشهود لهم بالعدالة و الضبط، والإتقان فضلاً عن كثرة مصنفاتهم وتنوع مواضيعهما.

ثانياً: إن أغلب من تتلمذ عليهم ابن أبي زيد من أهل أفريقيا قد تعرضوا لكثير من المضايقات من طرف العبيديين مما ألجأهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن هويتهم، وهو ما أفقد المالكية كثيرًا من علمائهم.

كان مالك الصغير كثير التأثر بشيوخه، يقول متحدثاً عن طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بأحد شيوخه وهو أبو إسحاق الجبنياني (٣٦٩هـ/٩٧٩م): (ومن محبته فيه ذكري له أنني أراه في المنام، كان من أعلم الناس باختلاف العلماء، ويعرف حظاً من اللغة العربية، حسن القراءة للقرآن، يحسن تفسيره وإعرابه وناسخه ومنسوخه، يحسن الرد على من تكلم بما لا يجوز، راجع عديد المفتين، ولقد قوى في قلبي أنه كان يدعو لي، وأنه رأى جامع مختصر المدونة الذي ألفته فأعجبه) كما كان دائم التودد إليهم فلقد بعث إلى القاضي أبي محمد عبد الوهاب

(١) انظر: ترتيب المدارك: ٢/٢٩٠-٢٩٣، الديباج ١/٣١٢.

(٢) انظر: الصلة ١/٣٠٠.

بألف دينار عيناً، وإلى الفقيه أبي القاسم بن شلبون في مرضه بمائة وخمسيندينارا ذهباً، فضلاً عن تجهيزه ابن الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار عيناً لئلا يشغل قلب أبيها عن طلب العلم[١]، وعموماً فإن من يتتبع سير من سبق ذكرهم يلاحظ:

أولاً: أن كل هؤلاء الشيوخ كانوا من خيرة أعلام عصرهم في تخصصاتهم، ومن المشهود لهم بالعدالة والضبط والاتقان فضلا عن كثرة مصنفاتهم وتنوع مواضيعها.

ثانياً: إن أغلب من تتلمذ عنهم أبن أبي زيد من أهل إفريقية قد تعرضوا لكثير من المضايقات من طرف العبيديين مما الجأهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن هويتهم، وهو ما أفتقد المالكية الكثير من علمائهم.

ثالثاً: كان مالك الصغير كثير التأثر بشيوخه، يقول متحدثا عن طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بأحد شيوخه، ولا يخلو مصنف من مصنفات ابن أبي زيد إلا وفيه إشادة ببعض شيوخه، وكان مما جاء في رثائه لشيخه ابن اللباد:

من رحمة الله إذ تمت نقيبته ... وقام بالحق في الدنيا فما وهنا

حتى استنار به الإيمان في بلد ... لولاه مات به الأيمان واندفعا

من كان في الله صحت بصيرته ... وقام في موقف قد كان أعجزنا

وجاد بالنفس عن دين الإله ولم ... يمل كما مال من داجى ومن ركبا

قد كان يعتز بالرحمن إذ قصدوا ... لذلة بهوان السجن إذ سجنا[٢]

(١) أنظر: معالم الأيمان ٣/ ١٤١.

(٢) رياض النفوس: ٢/ ٢٩٠.

وقال يرثي شيخه الممسي:

يا ناصر الدين قمت مسارعاً وبذلت نفسك مخلصا ومؤيدا
وذببت عن دين الإله مجاهداً وابتعت بيعاً رابحاً محمودا
كانت حياتك طاعة وعبادة فسعدت في المحيا ومت شهيدا
يا فائق الرتق الخفي بعلمه ومبينا للمشكلات مفيدا
جمعت كل فضيلة ونقيبه وحويت علما طارفا وتليدا
وبرعت بين أصوله وفروعه فقهرت ما كان قد كان منه عتيدا[1]

خامساً: بيئته

لم يكن ابن أبي زيد بالغريب عن بيئته بل كان على صلة وثيقة بها بتشخيصه الدقيق لمشكلاتها ومحاولاته البحث لها عن حلول مجدية، وعلى العموم فأن أكثر ما شد انتباه ابن أبي زيد وأزعجه تمثل في:

أولاً: ما تولد عن سيطرة العبيديين على إفريقية من استبعاد بل واستئصال لكل من خالفهم إلى حد التصفية الجسدية كما حصل لأبي بكر بن الهذيل، وابن البرذون اللذين ضربا حتى قتلا ثم طيف بهما مكشوفين بالقيروان تجرهما البغال، فضلا عن سياسة التجويع والعصا الغليظة لكل من أبدى ولو مجرد التعاطف مع مخالفيهم في الرأي وما حدث للفقيه محمد بن العباس الهذلي، ومحمد بن حفص الفهم الذي كان يؤم الناس بالجامع الأعظم بالقيروان خير دليل على ذلك[2].

(١) رياض النفوس: ٢/ ٢٩٢-٣٠٤.

(٢) أنظر: البيان المعرب: ١/ ١٨٧-١٩٠.

ثانياً: ما تم من تخالف مؤقت بين العبيديين وبعض الأحناف لمزيد رصد تحركات فقهاء المالكية، ويبدو أن بعض المنضوين من الأحناف تحت هذا الحلف قد أحسن أداء دوره كما هو الحال بالنسبة لقاضي القيروان إسحاق بن أبي المنهال الحنفي الذي حبس ابن اللباد، واحمد بن نصر، وأحمد بن زياد، وضرب محمد بن أحمد بن حمدون المؤدب، وإبراهيم القسطلاني، وإبراهيم المغربي بل تذكر بعض الروايات أنه المتسبب الحقيقي في وفاة عمروس المؤذن.

ثالثاً: ما شهدته إفريقية خلال الفترة الممتدة من (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) إلى (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) من ثورة بقيادة أبي زيد بن يزيد الملقب بصاحب الحمار على العبيديين، وما تكبد فيها أهل السنة والمالكية منهم على وجه الخصوص من خسائر فادحة بسبب تحالفهم مع ذلك الثائر الماكر الذي انقلب عليهم حالما شعر بقرب النصر[١] حيث ذكر ابن عذاري أنه قتل من صلحاء القيروان وفقهائها حوالي خمسة وثمانين عالما كلهم فاضل خير[٢].

لقد كان ابن أبي زيد شديد التأثر بما كانت تمر به بلاده من فتن، وقد حاول بأكثر من أسلوب وضع حد لتلك المأساة بدعوته الملحة الى الحوار والتعايش بين مختلف الأطراف.

جهوده في الدفاع عن عقيدته:

كان ابن أبي زيد على مذهب أهل السنة والجماعة كما صرح بذلك في كل من "باب ما تنطق به الألسنة"[٣] وفي "باب ذكر السنن التي خلافها البدع وذكر

(١) انظر: البيان المعرب: ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: البيان المعرب: ٢/ ٢٢٨.

(٣) الباب الأول من أبواب الرسالة.

الاقتداء والاتباع وشيء من فضل الصحابة ومجانبة أهل البدع"[١] فضلا عنا أورده في مواقع اخرى من بقية مصنفاته، والتي أبرزت بكل جلاء ما يكنه من محبة لمذهبه واستعداد للتضحية من أجله، وذلك بما أولاه من اهتمام لكل ما هو محل خلاف حيث عرف بحقيقة الايمان، وكيف أن التصديق من غير قول لا يرتقي بصاحبه الى مرتبة الأيمان، مؤكدا أن الأيمان عرضة للزيادة والنقصان يزيد بزيادة العمل وينقص بنقصانه، مع التنصيص على أن العمل شرط كمال الأيمان لا صحته، وأن كل قول أو عمل لا يلتفت إليه إلا بعد الاطمئنان من موافقته لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، رافضا تكفير أحد من أهل القبلة بذنب وإن كان كبيرا لأن الإيمان لا يحبطه إلا الشرك بالله، مقراً بثبوت الشفاعة لرسول الله ﷺ على خلاف ما ذهبت إليه بعض الفرق الإسلامية الأخرى.

وبقدر ما أولى مالك الصغير اهتماماً بما سبق ذكره من مباحث فقد كانت عنايته بما كان يروجه بعض الصوفية من بدع وضلالات أشد كما توحي بذلك عناوين بعض مصنفاته مثل كتاب التلبيس، وكتاب الاستظهار في نقد كتاب لعبد الرحمن الصقلي، الذي أورد فيه أشياء غريبة من خوارق العادات مما كان يدور على ألسنة بعض الصوفية، والتي لا تساعد في مجموعها إلا على مزيد التواكل وترك الأخذ بالأسباب، وهو ما يتعارض مع روح الإسلام وجوهره، ويبدو أن هذه المواقف الجريئة قد كلفت ابن أبي زيد متاعب جمة حيث أتهم بإنكار الكرامات، والتطاول على أولياء الله، والاستنقاص من شأنهم كما ورد ذلك في مصنفات أبي الحسن بن الهمداني، وأبي عبيد بن شق الليل، وأبي عمر الطلمنكي وغيرهم، ولم ينصفه من المهتمين بهذه المسائل إلا العدد القليل كالقاضي

(١) الباب الأول من أبواب الجامع.

الباقلاني (٤٠٣هـ/ ٩١٦م) معتمدا في ذلك على ما أورده مالك الصغير نفسه في كتابه إثبات كرامات الأولياء[١].

هكذا حاول ابن أبي زيد إيضاح الحق وإبطال الشبهة محاولا رد المخطئ الى الصواب، والضال الى الرشاد، والزائغ الى صحة الاعتقاد، مجتنبا ما استطاع كل تطويل ممل واختصار مخل، مركزا اهتمامه على رؤوس دون الايغال في التفريعات مما مكنه من تعريف معاصريه أكثر بعقيدته، محاولا إقناعهم بأنها الأحق بالبقاء والأجدر بالاتباع[٢].

اجتهاده في إثراء مذهبه الفقهي

شعر ابن أبي زيد منذ وقت مبكر بضرورة العمل على العودة بالفقه الى صفائه، وفكه من قيود الجدليات والعصبيات فصنف بطلب من أحد اساتذته كتاب الرسالة ثم واصل إنتاجه في هذا الإطار بتصنيف المختصر، ثم النوادر، وتهذيب العتبية، والمناسك، وتفسر أوقات الصلاة، وإعطاء الزكاة للقربى، والاقتضاء بأهل المدينة، والذب عن مذهب مالك، ومسألة النكاح من غير بينة وغيرها، والمتأمل فيما احتوته بعض هذه المصنفات، وبما توحي به بعض العنوانات الأخرى منها يلاحظ تميز أعماله بجملة من الخصائص الشكلية والموضوعية، فعلى المستوى الأول

---

(١) انظر: القاضيان القيروانيان ١٤٩.

(٢) انظر ما توحي به عنوانات كتبه الآتية: كتاب الثقة بالله والتوكل عليه، كتاب أصول التوحيد، كتاب الاقتداء بأهل السنة، كتاب المنهي عن الجدل، كتاب التنبيه على القول في أولاد المرتدين، رسالة في الرد على القدرية، الرد على ابن مسرة المارق، مناقضة رسالة علي بن أحمد البغدادي المعتزلي، كتاب العقيدة، كتاب المعرفة واليقين والتوكل، قصيدته في البعث، الى جانب ما كتبه من رسائل في الوعظ مثل: رسالة الموعظة الحسنة، رسالة الموعظة والنصيحة، رسالة وعظ بها محمد بن الطاهر القائد، وعموما فقد كان ابن أبي زيد ميالا الى الأخذ بظاهر النص معرضا عن تأويله الا عند الضرورة.

يلاحظ القارئ لآثاره وضوح عباراتها الى جانب براعة صاحبها في صياغة المسائل وشرحها بما التزم به من اختصار في سرد الآراء، وإيجاز في إيراد البراهين حيث لا مجال في جل أعماله للألفاظ الغريبة والجمل الطويلة، ولتيسير الأمر على القارئ أكثر سعى ابن أبي زيد في أكثر من مناسبة الى شرح ما قد يتعسر على غير المتخصصين معرفته كقوله [والقران في التمر أكل تمرتين أو ثلاث في لقمة واحدة][١] و[العكوف الملازمة][٢]، و [الشفق هو الحمرة الباقية في المغرب من بقايا شعاع الشمس][٣] وكثيرة هي الشواهد الدالة على مدى معرفة ابن أبي زيد بخصوصيات أهل زمانه كما يستفاد ذلك من جوابه عن سبب حشره لباب [جمل من الفرائض ومن السنن الواجبة والرغائب] في رسالته، والذي جاء مخالفا لما وضعه من شروط في مقدمتها حيث قال [لما رأيت الناس زهدوا في العلم، ورغبوا عن تعلمه، وقد أمرنا بنشر العلم بحسب الإمكان قصدت الى تحديد عيون ما تقدم إذ الواجب على كل مكلف أن يحفظ عين ما كلف به، ويعمل على الجزم فيما خوطب به، وقد كان رسول اللهﷺ يسلك بأصحابه سبيلا فإذا رأى منهم مللا سلك بهم مسلكا آخر تنشيطا لهم وإذهابا للكسل][٤].

أما على المستوى الموضوعي فبعد أن انتهى مالك الصغير من إعداد رسالته الجامعة لأهم ما يجب على المؤمن فقهه تحول الى إعداد موسوعة في الفقه المالكي جمع فيها ما تناثر من فقه مالك في مختلف المصنفات من أراء وأقوال، ونوادر، وغرائب النوازل الى جانب ما انفرد به بعض شيوخ المذهب من فتاوى قديما

(١) الجامع: ٢٤٩.

(٢) حاشية العدوي: ١/ ٤٠٩.

(٣) حاشية العدوي: ١/ ٢١٩.

(٤) حاشية العدوي: ٢/ ٣٣٠-٣٣١.

وحديثا، مرتبا إياها أحسن ترتيب، وهو ما شهد له به أكثر من عالم، يقول حسن حسني عبد الوهاب (وهو الذي لخص المذهب المالكي، ورجح أقواله، وجمع بين أراء المتقدمين ولا سيما في كتابه النوادر والزيادات على المدونة إذ استوعب فيه فروع المذهب فصار بمثابة مسند الأمام أحمد بن حنبل عند المحدثين)[١].

ومن المعلوم أن ابن أبي زيد لم يكتف بمجرد الجمع وحسن الترتيب بل كان على الدوام يستقرئ النصوص، ويوازن بينها مرجحا الأولى بالقبول والأيسر من حيث التطبيق، يقول مالك الصغير متحدثا عن دوافع تصنيفه لكتابه النوادر والمنهج المتبع فيه [أن هذه الدواوين تشمل على أكثر ما رغبت فيه من النوادر والزيادات، وما رغبت في استخراج ذلك منها. وجمعته باختصار من اللفظة بطلب المعنى، وتقصي ذلك، وأن أبسط بعض البسط، واكتفى بما ذكر في أحدها عن تكراره والزيادة عليه ما زاد في غيره ليكون ذلك كتابا جامعا لما افترق في بعض هذه الدواوين من الفوائد وغرائب المسائل وزيادات المعاني على ما في المدونة، وليكن لمن جمعه مع المدونة أو مع مختصرها تصنع بهما، وغني بالاقتصار عليهما لتجمع بذلك وتستمر همته وتعطى مع قلة العناية بالجمع فائدته)[٢].

هكذا يتضح أن ابن أبي زيد قد احسن التواصل مع مختلف موارده وأفلح في الاستفادة منها مما يسر له مزيد التعريف بمذهبه الفقهي، والبحث عن حلول لما كان يتهدد بيئته من مخاطر بما أبداه من تصدى محكم لمختلف مظاهر الجمود والانغلاق، وأظهره من دعوة ملحة الى الحوار والتعايش وفق منظومة فكرية شعارها ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ الآية[٣]

(١) ورقات: ٣/ ٥٣.

(٢) النوادر والزيادات المجلد ١/ الورقة ٢ أ

(٣) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

الأمر الذي ساعد مذهبه على الصمود وعدم الانقراض، ومكن منهجه في البحث والاصلاح من الاشعاع والاستمرار.

مصادر البحث ومراجعه

بعد القرآن الكريم

١- البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى، الدار العربي للكتاب، بيروت.

٢- تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، تعريب محمود فهمي حجازي وفهمي أبو الفضل، القاهرة ١٩٧١.

٣- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض تحقيق أحمد بكير، مكتبة الحياة بيروت.

٤- الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي، تحقيق عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي ط٢/ ١٩٩٠.

٥- الجامع الصحيح للأمام محمد بن إسماعيل البخاري، قرص موسوعة الحديث النبوي، شركة صخر، الإصدار ٢.

٦- الجامع الصحيح للأمام مسلم، قرص موسوعة الحديث النبوي، شركة صخر، الإصدار ٢.

٧- الحاشية على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد القيرواني لعلي الصعيدي العدوي، دار الفكر للطباعة والنشر.

٨- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب إبراهيم بن فرحون، حققه محمد الاحمدي أبو النور، دار التراث للطباعة.

٩- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، دار الفكر للطباعة والنشر.

١٠- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي.

١١- السنن للإمام الترمذي، قرص موسوعة الحديث النبوي، شركة صخر، الإصدار ٢.

١٢- السنن للإمام أبي داود السجستاني، قرص موسوعة الحديث النبوي، شركة صخر، الأصدار٢.

١٣- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤- الصلة في تاريخ أئمة الاندلس لخلف بن عبد الملك بن بشكوال، مطبعة السعادة.

١٥- الضعفاء الكبير لمحمد بن عمرو العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤.

١٦- مختصر المدونة لابن أبي زيد القيرواني، مخطوط/ المجموعة ١٤٨٩٤، دار الكتب الوطنية بتونس

١٧- معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الدباغ، مكتبة الخانجي، مصر ١٩٦٨

١٨- المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون، دار أحياء التراث العربي، ط٤.

١٩- الموطأ للإمام مالك بن أنس، قرص موسوعة الحديث النبوي، شركة صخر، الإصدار ٢.

٢٠- النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من الأمهات من مسائل مالك وأصحابه لابن أبي زيد القيرواني، مخطوط ٥٧٢٨ دار الكتب الوطنية بتونس.

٢١- ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية لحسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس ط٢/ ١٩٧٢.

22- H R IDRIS: DEUX JURISTES KAIROUANAAIS DE LEPOQUE ZIRIDE, ANNALES DES INSTITUES D ETUDES ORIENTALES, TOME XII ANNEE 1954.